الشريعة ومنهج التعامل مع الأموال

أ . د / أمان محمد قحيف (*)

للإسلام رؤيته الخاصة وطرحه المتفرد في التعامل مع قضية المال، وتتمايز هذه الرؤية عن غيرها من الرؤى والتصورات التي كانت سابقة عليه زمانيًّا، وتتمايز أيضًا عن الرؤى التي أبدعها العقل البشري في أزمنة ما بعد نزول القرآن على قلب النبي ﷺ .. ولعل هذا الأمر هو ما يجعلنا نقرر مطمئنين بأن للدين الحنيف فلسفة في الأموال غير مسبوقة وله فيها تصورات غير منقولة عن ملة، أو شريعة، أو فكر سابق عليه في المراحل التاريخية الماضية الضاربة في عمق التاريخ .

ولكي تتضح لنا الرؤية التشريعية والفلسفية التي يقدمها الإسلام في هذا السياق لا بد لنا من أن نضع أيدينا على عدة نقاط نسوقها على النحو التالي :

أولًا : إن القاعدة الأولى والأساسية التي ينطلق منها الإسلام في نظرته إلى الأموال تصيغ فلسفة واضحة جلية، هذه القاعدة تعلن في بلاغة عالية وإيجاز لافت أن «المال مال الله».

فعبارة: «المال مال الله» تمثل شعار الإسلام الأول ومنطلقه الأساسي في النظر إلى الثروة ومنهجية التعامل معها .. والحق أن الانطلاق من هذا المبدأ، والتحرك من خلاله يجعل مَن بيده مالًا - قل أو كثر - يتعامل معه معاملة المسئول عنه والمحاسب على نشاطه به وتصرفه فيه .

وثمة أهمية للتنويه هنا إلى أن هذا الشعار لم يأت من فراغ ؛ إذ تؤكد نصوص القرآن الكريم أن ليس المال وحده هو الذي ملك لله - تعالى - إذ الكون كله من أعلاه إلى أسفله، ومن أقصاه إلى أدناه، ملك خالص لله عزَّ وجلَّ ؛ لأنه تعالى هو من خلق المخلوقات وأوجد الموجودات، فهو موجدها وهو تعالى مالكها، قال العزيز الحكيم :

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

(المائدة : ١٧)

وعلينا أن ندرك أن الإسلام أقر بأن «المال مال الله»؛ لأنه - سبحانه - هو الذي فتح للإنسان أبواب الرزق التي ساهمت في تيسير

(*) أستاذ الفكر الإسلامي المعاصر

جمعه لهذه الثروة التي بين يديه، بالتالي فالله – تعالى – هو الذي أعطاه هذا المال، بدليل قوله عز وجل :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (النور : ٣٣)

وهنا يأتي السؤال : إذا كان «المال مال الله»، فما طبيعة علاقة الإنسان بما لديه من ثروات ؟ وكيف صاغ الإسلام منهجية تعامل الأفراد مع ما بيدهم من أموال ؟ .. وهنا نشير إلى أن الإجابة القرآنية الدامغة على هذا السياق تتجلى في قوله تعالى :

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد : ٧)

وهكذا يتبين لنا أن الإنسان مستخلف في ماله وليس مالكًا له ملكية تامة كاملة، ويتبين أيضًا أن القرآن الكريم يؤكد أن الله – تعالى – هو الذي فتح للإنسان أبواب جمع هذا المال ويسر له سبل الرزق الحلال .. من هنا فهو مستخلف فيه، ومحاسب عليه، ومسئول عن كيفية اكتسابه وطرق إنفاقه، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تزول قَدَما عبد يومَ القيامة حتى يُسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»(١).

والحق أن رؤية الإسلام للمال باعتبار أن الإنسان مستخلف فيه تعد رؤية تقدمية، وإنسانية، وأخلاقية، إلى حد كبير ؛ ذلك لأن الاستخلاف في المال يعني عدم الملكية المطلقة له، ويعني أيضًا أن الإنسان محاسب على ماله ومسئول عن سبل جمعه له، وطرق إنفاقه والتصرف فيه ؟ .. وهذا من شأنه ضبط الشره الكامن داخل النفس الإنسانية تجاه جمع المال واكتنازه، ومن شأنه أيضًا تنبيه الإنسان وتحذيره من اتباع أي سبل ملتوية أو غير بريئة لكسب المال، فالمال الذي يكسبه الإنسان نتيجة التحايل، والرشوة، والكذب، والاغتصاب، والنهب، والتزوير ... إلخ كله مال حرام ويحرم الانتفاع به والتعامل معه .. يضاف إلى هذا أن تشريع الإسلام الذي يقوم على أن الإنسان مستخلف في المال – ليس أكثر – من شأنه حض الإنسان حضًّا ودفعه دفعًا إلى إنفاق المال في أبواب الخير، وإعانة الناس، ودعم أهل الفقر والعوز .. بالتالي فهو يوجهه إلى إنفاق ماله في الأوجه التي تفيده وتنفعه في قضاء متطلبات حياته الدنيوية، وتفيد مجتمعه أيضًا وتنفعه، الأمر الذي يثيبه الله – تعالى – عليه خيرًا في الحياة الدنيا والأخرة .. فالمال في الإسلام أداة لانتظام حركة الحياة وأداة أيضًا لتحصيل الخير والتقرب إلى الله تعالى .

ثانيًا: يُذكِّر الإسلامُ الإنسانَ دائمًا بأنه مفارق لما لديه من مال لا محالة .. فقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : «يقول العبد : مالي .. مالي ! .

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، عن عبدالله بن عباس ٣٤٩/١٠.

إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[٢] .. وجاء في ذلك أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : «يقول ابن آدم : مالي ! . .. وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت ؟» [٣] .

والمتأمل في مثل هذه الأحاديث يتبين له أن الإسلام يريد كبح جماح حالة الشره التي تعتمل داخل النفس الإنسانية تجاه كنز المال والحرص على التفاخر به، أيضًا «في هذه الأحاديث الشريفة يحدد الرسول ﷺ أن الإنسان قد جُبِل على السعي لجمع المال، فهو يندفع طالبًا إياه، ومدعيًا الحق في حيازة ما لا حدود له من الثروات –« مالي مالي !» – لكن الإسلام يضع للإنسان المعالم على هذا الطريق، ويدعوه إلى الاقتصاد في هذا السبيل ... فماله الذي شرعه له الإسلام، هو ما يسد حاجاته ويكفي متطلباته، ويضمن نجاته من الحاجة والعوز، ويُمَكِّنه أن يكون خيرًا نافعًا لمن حوله» [٤].

ثالثًا : لم يغفل الإسلام أن المال يعد سببًا للمباهاة بين الناس في الدنيا، وأنه يؤكد الإحساس بزينة الحياة : فالمال هو أحد الأسباب الأساسية والرئيسة للتمتع في هذه الحياة الدنيا .. ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن وفرة المال في يد الإنسان تؤدي به إلى الإقبال على الحياة والفرح بها، لكنه أكد – من جهة أخرى – أن الحرص على فعل الباقيات الصالحات مسألة مقدَّمة ومقدرة على جمع المال وحيازته والتباهي به ؛ وذلك لكونها مفيدة أخرويًّا، ولها سموها فوق كل أسباب متاع الحياة الدنيا، قال تعالى :

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

(الكهف : ٤٦)

جاء عند الطبري في تفسيره لهذه الآية :

«﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ مما يتزين به الناس في الحياة الدنيا .. أما الأعمال الصالحة فهي الباقية بعد فناء الحياة الدنيا التي تفنى ولا تبقى لأهلها »[٥] .

ونبه الإسلام إلى أن المباهاة أو التباهي بالمال والثروة قد يجر المرء إلى مفاسد لا قِبل له بتداعياتها ولا بنتائجها، ولقد ضرب القرآن الكريم المثل في هذا السياق بما حدث من قارون الذي يعد من أكثر الناس حيازة للمال عبر التاريخ الإنساني، ولقد أوضح ربنا قصة قارون في التباهي والاغترار بالثروة في قوله عز وجل :

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة برقم ٢٩٥٩. .

(٣) رواه مسلم من حديث عبدالله بن الشخير، برقم ٢٩٥٨ .

(٤)دكتور محمد عمارة . الإسلام والمستقبل . دار الشروق . ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م . ص١١٤ .

(٥) راجع تفسير الطبري للآية رقم ٤٦ من سورة الكهف . بتصرف يسير .

وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

(القصص : ٧٦ – ٨١)

رابعًا : نبه الإسلام إلى خطورة الترف الزائد على بعض الناس : فإذا كان الإسلام قد نبه إلى خطر وخطورة المباهاة بالمال – على النحو الذي ذكرناه – فإنه قد أشار إلى أن بعضًا ممن يتوافر لديهم الترف الزائد عن الحد المعقول قد يتخذون مواقف تتسم بالطغيان والتمرد على دعوات الحق وصيحات الحقيقة :

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ

(العلق : ٦، ٧)

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن نفرًا من ذوي الاستغناء المادي والمالي قد تغريهم أموالهم وتطغيهم ثرواتهم، فيذهب الواحد منهم إلى الطغيان على الحق والانصراف عن الحقيقة والصواب.

ولقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن العديد من المترفين قد يمثلون المدخل إلى الفسق المؤدي إلى نزول عقاب الله تعالى على القرى التي تتخذ مواقف سلبية من رسالات الرسل ودعوات الأنبياء :

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا

(الإسراء : ١٦)

وأشار القرآن الكريم إلى أن المترفين هم أكثر الناس معارضة للدعوات الدينية بحجة السير على درب الأقدمين وعدم مخالفة ما كان عليه الآباء والأجداد:

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ

(الزخرف : ٢٣)

وكشف القرآن الكريم أن هناك من المترفين مَن يظن أن حيازته للمال قد تجعله أكثر تميزًا وتضمن له أفضلية على غيره من الناس :

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

(سبأ : ٣٤، ٣٥)

ولنا أن ننتبه إلى أن من الأسباب الكامنة

خلف تمرد بعض المترفين على الدعوات الدينية والرسالات السماوية رغبتهم الملحة في التصرف في أموالهم التي بين أيديهم بحرية مطلقة ومن دون ضوابط منظمة أو تشريعات حاكمة :

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

(هود : ٨٧)

ولعل هذا بالضبط ما حدث – أيضًا – مع عمرو بن هشام الذي منعته رغبته الجارفة في التمتع بأمواله من دخول الإسلام والانتساب إلى الدعوة الغراء .

ويضاف إلى هذا أن المترفين يستكثرون النبوة من نبئ من البشر ويعلنون رغبتهم في أن تتنزل الرسالات على الأغنياء منهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(الزخرف : ٣١)

من هنا فهم يرفضون الدعوات الإيمانية لا لشيء إلا لكونها نزلت على رجل يأكل مما يأكل منه الناس ويشرب مما منه يشربون ؛ إنهم يريدون للرسالات أن تنزل على صفوة الأغنياء من ذوي الأموال والثروات :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾

(المؤمنون : ٣١ – ٣٣)

الخلاصة :

لقد وضع الإسلام منهاجًا وسطيًّا شديد الاعتدال في التعامل مع المال، هذا المنهاج يُبنى على قاعدة أن « المال مال الله»، والإنسان مستخلف فيه، ومسئول عن طرق اكتسابه وسبل إنفاقه، وهذا من شأنه توجيه النفس الإنسانية إلى وضع المال في موضعه الصحيح والسليم، فهو ليس غاية يسعى الإنسان إلى إدراكها والوصول إليها، إنما هو وسيلة لقضاء حاجات الحياة الإنسانية الشريفة ؛ ولأنه ليس هدفًا في ذاته فالإسلام لم يطلب من المسلم أن يطلب من الله تعالى الزيادة في المال والثروة، مثلما علَّمه أن يطلب الزيادة في العلم :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

(طه : ١١٤)

ولم يشأ الله تعالى أن يجعل المال سببًا لرفع مكانة بعض الناس على بعض، بل جعل الرِفعة مرتبطة ومتعلقة بالإيمان اليقيني والعلم الحقيقي، قال تعالى :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ (المجادلة : ١١)